حوار بينى وبين مريض :

التترف والتطرف.. فى الدين والسياسة

د. محمد شعلان

هذه حكايتى يا دكتور

معاناتى الآن أنى فقدت الإيمان بكل شىء .. أصبحت أعيش بلا هدف ولا معنى ، حتى المتع الحسية التى كانت تكون لتسيير آلامى لم يعد لها طعم ، كذلك العقاقير – سواء تلك التى وصفها لى الأطباء ، أو تجار المخدرات المسموح بها أو الممنوعة ، من مهدئات ومنبهات ومسطلات – لم تعد تكون لتغيير وعيى بالواقع المؤلم ، أو بأحاسيسى بالألم . ولم أعد أقتنع أنى مصاب بمرض نفسى . اسمه « اكتئاب » أو ما شئت . إننى أبحث عمن أتحدث معه ليفهمنى ، ويساعدنى على فهم ما يحدث ، بغية أن أستعيد الرؤية ، وأجد للحياة معنى وهدفا .

وتبدأ القصة بشاكى الدينية ، حين ترسخ فى ذهنى الصغير أن هناك خيرا وشرا .. وخالقا يحاسبنا على اختياراتنا . كان أبى رجل أعمال ناجحا ، ولكن العمل أنهكه ، وقرر أن من حقه أن يحيا فى ترف . كان يحسن إلى الفقراء ، ويتبرع لبناء المساجد ، ويؤدى مظاهر العبادة بدقة وانتظام .. من صلاة وصوم وزكاة وحج ليت الله الحرام . كان يختنا ، رغم ترفه ، على التقشف ، فقد كان عصاميا ، وبدأ حياته فقيرا . وكان يحثنا على العمل ، ويحرمنا من الاستمتاع الذى كان ينعم به .

إلا أن حياة الترف التى كان يحياها كانت توحى لنا بالاستمتاع ، يأمرنا لفظيا بشىء ، ويوحى لنا بالقدوة بعكسه .

وبرزت صفة الاستمتاع عند المقارنة مع حياة الآخرين الذين كانوا يعيشون حولنا ، سواء كانوا موظفين صغارا أو كبارا ، أو عمالا وفلاحين ، ناهيك عن المعدمين الذين لا يجدون مصهرا للرزق . وازدادت المقارنة حدة ، حينما شاهدت الخدم الذين يقيمون معنا فى نفس المنزل ، ولكنهم لا يأكلون مما نأكل ، ولا ينامون على ما ننام ، ولا يلبسون ما نلبس ، بل لا ملكية لهم على أجسادهم ذاتها ، مثل الجوارى ، بل هم أسوأ حالا . فالجارية على الأقل كان يعترف بشرعية أمومتها لمن تنجبه ، ومالكها مسئول عنها إلى النهاية ، فلا يرمى بها فى الخارج بعد الاستغناء عنها .

ثم اكتشفت أن أبى الوقور ، وأصدقاءه ، يحتسون الخمر ، ويسهرون بين حين وآخر للمزيد من الاستمتاع . وكان أصدقاؤه بالطبع أثرياء مثله مترفين ، ولم أكن أجرؤ على مناقشته ، ولكنى علمت أنهم يجدون المبررات لتلك المبررات ، حتى إذا ما أفلسوا قالوا : إن الله غفور رحيم ، وكيف يكون استغفارهم نابعا من القلب إن لم تكن هناك ذنوب يرتكبونها فعلا . ثم بدأت أتساءل عن مصادر الثراء ، وكيف يعقل أن يعمل بعض الناس ولا يكسبون ، بينما يستمتع بعض الناس بثروات كبيرة لعمل قليل أو بلا عمل .

وزادت تساؤلاتى فى صمت أنى كنت مولعا بعمل الاستذكار ، ومحروما من الاستمتاع . فى ذات الوقت الذى أشاهد مظاهر المتعة حولى . كما كنت أرى المحرومين مثلى حولى ، بل يعيشون معى فى نفس المنزل كخدم ، فى حال أسوأ من حال العبيد .

ومع تمرد جسدى وعقلى بما يجعلنى أناقش ، ولو مع زملائى أو أساتذتى ، بدأت رفضى قيم أسرتى . ولكنى مع ذلك لم أرفض القيم برمتها ، فلم يكن فى استطاعتى أن أستغنى تماما عن القيم . فرفضت دين الترف الذى كان يحياه أبى ، ومع رفضى له وجدت نفسى فى طرف آخر للدين ، يدعو للعدالة الاجتماعية ، وللحرية ، وللكفاح ضد الظلم . فقد تعلمت من تاريخ الإسلام فى فجره ، ومن خلفائه الراشدين ثم من شهدائه ، ومنهم الحسين بن على ، ثم من الصحوات المتفرقة التى برغت بعد ذلك .. تعلمت أن هناك وجها آخر للدين غير الترف .. وتطرفت . وزاد من تطرفى أنى وجدت أن ذلك يربطنى بالآخرين ، بالأسرة الكبيرة .. بالعالمية من المواطنين من فقراء مظلومين ، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم العربى والإسلامى .. بل بعالم الفقراء بأسره . ووجدت غيرى من الشباب المثالى يحلمون بعالم أفضل ، فآخيتنى فى أسرة عوضتنى عما فقدته من انتماء لأسرتى التى ثرت عليها وتطرفت عنها . وواسانى أنى كنت أنظر إلى المستقبل . فإذا كان التبصر العاجل لأسرة الترف اليوم ، فالتبصر الآجل لأسرة التطرف فى الغد . فالزمن معنا لأننا شباب ، والسنوات أمامنا طويلة ، ولأننا مظلومون ، والمظلوم دائم اليقظة بفعل ألمه ، ودائم البحث عن العدالة .

وكان من مزايا تطرفى أن أجد نفسى فى معركة أدافع فيها عن وجودى فى مواجهة أصحاب الترف ، وكأننى كنت أحلم بالاستشهاد ، أو أتمنى العقاب . فلا أخفى عليك أننى كنت أشعر بالذنب فى رفضى لأبى ، ومعارضتى له . فقد كان كثيرا ما يستسلم أمامى ، ويكرر تأكيده أن ثروته هى أصلا من أجلى ، وفى النهاية آيلة لى .

وكنت أبحث عن معركة . فالمعارك تقوى السواعد ، وتغذى روح النضال من أجل الرسالة التى كنت أعتقد أننى من حملتها . والمعركة تساعدنى على أن أؤكد استقلالى عن أبى . كان لابد من أن أجد أعداء آخرين غير أبى ، ومما أن هويتى دينية فقد توجهت بالعداء نحو الأديان الأخرى . أتصارع معها . وكانت ، من حظى ، أديان الأقليات تشكل عصبيتها حول عنصرية يسهل كشف عزلتها عن غالبية جمهور الفقراء والمظلومين ، فاليهود حينما يتطرفون مثلى ، إنما يجدون أنفسهم مدافعين عن كونهم يهودا مظلومين كعنصر ، وليسوا كفقراء فى مواجهة الأثرياء . كان من السهل أن أؤكد عزلتهم عن الجماهير التى تساندنى ، بأن أبرز ولاءهم لدولة أجنبية معادية ، تعمل بالتنسيق مع الدول الأجنبية المعادية ، التى كنت فى صراع معها – سواء كانت غربية سوفيتية أو غربية اطلنطية . والتطرف عند الأقباط كذلك مكنتى من أن أعزلهم ، بأن أؤكد ذات الولاء للعنصر وليس للجمهور الغفير من غالبية الفقراء . فالتطرف هنا يعبر عن الشعور بالظلم ، كعنصر أقلية وسط أغلبية . ويسعى للإنصاف للعنصر المظلوم . وليس بين الفقراء والمظلومين من جانب والأثرياء من جانب آخر ، لم يكونوا ثائرين مثل على آبائهم ، بل على العكس ، كان ولاؤهم للأب ولبابا بالتحديد يسبق ولاءهم لغنى .. فقد الشباب الثائر على ظلم الآباء ، والفقراء الثائرين على الأثرياء .. وكنت أؤكد لنفسى ذلك ، برفضى لجميع الآباء ، بمن فيهم مثيل البابا عندى . فإن كنت قد تأثرت بمقتل الشيخ الذهبى فهو ألم الشعور بالذنب ، لأن الجريمة التى كنت أتمناها تحققت . لقد كنت أتمنى ، ولو بشكل حق ، أن أتخلص من « بابا » أى من أى « أب » .. وهكذا وجدت فى رفضى لإخوانى الأقباط واليهود ، بديلا لرفضى لأبى ، الذى كنت أشعر بالذنب تجاهه . فقد كان بالنسبة لى

مظهرا لامتداد ، وتجسيدا لصورة الـ « بابا » الشرير ، مما يخلف من حدة هجومي على أبي . وكان مما يساعدني على ذلك أنهم رغم ، أو بسبب كونهم أقلية ، يمتازون علميا وماليا بالنسبة لعددهم . وبالتالي يمثلون قوة تخيف الأغلبية الفقيرة . وما كان عدلا بالنسبة لهم كان في نظر الأغلبية توزيع امتياز يفوق التمثيل العددي . ومما أنه كثيرا ما تغلب الكثرة الشجاعة ، فقد كان من الطبيعي أن يكون رد فعل الأغلبية في سعيها للتوازن ، أو محاولة الأغلبية من سيطرتهم ، يبدو كأنه اضطهاد لهم . وهكذا ليسر لأثريائهم وآبائهم أن يكسبوا ولاء فقرائهم أو شبابهم ، فلا يثوروا عليهم كما فعلت أنا مع أبي . لقد كنت في طرف ، وكانوا هم الطرف الآخر . ولكني كنت أواسي نفسي أني مع الطرف المظلوم المطالب بالعدالة ، وأن العدالة لا محالة سوف تنتصر .

ومع ذلك فقد كان هناك ما يؤرقني . فقد كان لي أصدقاء أعز بهم من شباب يهودي وقبطي ، ومن الشباب الملحد أيضا ، والذي اكتشف بعضه لنفسه نظرة آخر في ذلك الاتجاه ، نعم كان منظرفا في إلحاده ، كأنه عقيدة دينية – إلهها المادة ، وجنتها العالم المنتظر الذي بلا طبقات ، وجحيمها عالم اليوم ، ورسلها ماركس وانجلز ولينن وغيرهم . ووجدت قاسما مشتركا بيننا جميعا ، هو أننا كلنا ثائرون على ما ورثناه من آبائنا ، وحالمون بعالم أفضل ، ولكنهم أيضا كانوا منظرفين في « دينهم » الجديد ، وكانوا طرفا جديدا وجدت نفسي في تناطح معه .

وهكذا وجدت نفسي على طرف قاعدة مثلث على قمته تترف ، وفي مواجهتي تطرف آخر ، واستمر الصراع ، ومحاولات الاستقطاب . فكل طرف يرغب في استمالة طرف آخر ، حتى تكون له الغلبة ، ويتربع على القمة . أصحاب الترف القابعون أصلا يضربون طرفا آخر . وكلما قوى طرف يتحازون للطرف المضاد ، حتى يحفظوا التوازن . تارة يستميلون المنظرفين الملحدين تحت شعار بناء الدولة الاشتراكية العلمية الصناعية الحديثة ، وتارة يستميلون المسلمين تحت شعار بناء الدولة الإسلامية ، واستعادة أمجاد الماضي ، وتارة يستميلون الأقباط تحت شعار الديمقراطية والوحدة الوطنية ، وافتح مجال لاستمالة اليهود تحت شعار السلام العالمي .

لقد أيقنت أني كالأعوبة . كالعسكري في قطع الشطرنج ، يواسيني أني لست وحدي الدمية التي يلعب بها ، ولكن يؤلمني أني أول من يضحي به في كل حركة . وقررت ساعتها أن أضع يدي في يد العساكر ، وأن أستمع إليهم ، وكنت عندئذ قد سئمت الكبت والحرمان . وكان الإيحاء الملا لفظي الذي كان أبي يوحي لي به من خلال سلوكه ، يجد صدى في نفسي ، ويلح علي ، وكانت رغبات جسدي تلح علي ، ووجدت ما كنت أبحث عنه في التقائي بأصدقائي في أرضية واحدة ، والتقينا حول الحد الأدنى الذي يجمعنا ، وهو رفضنا للماضي ، وحلمنا بمستقبل أفضل . ووجدت أنه عند هذه النقطة لا فرق بين مسلم وقبطي ويهودي وملحد ، سعينا للترف الذي كان يوحي به الآباء . وتذوقنا منه العينات في صور المتعة المختلفة ، واغترفنا من فضلات الترف الذي كان ينعم به الآباء . ولكنا لم نشبع ، وطلبنا المزيد ، وتعلمنا اختصار الطريق ، وأجدنا قواعد اللعبة ، واكتشفنا طبيعة الأعمال التي تحقق لنا الربح السريع . وفعلا صرنا من أصحاب الترف . ذات الترف الذي ثرنا عليه !

وهنا ارتبكت واهتزت قيمي ، وأصبحت لا أعلم ما أريد . فقد وجدت نفسي أعجز من أن أكرر ما كان يفعله أبي . أعيش في ترف ، وفي ذات الوقت أدافع لفظيا فقط عمن هم في الأطراف . فالنتيجة أني فقدت الطرف وعاديت الترف . ووجدت نفسي عدوا للجميع ولنفسي ، ومتحللا وأتصارع في داخلي . وعندئذ حضرت إليك ، لأني لم أعد أجد معنى ولأني فقدت الهدف والطريق . فقدت الدافع والحيوية . أصبح كل شيء باطلا . لقد حاولت أن أعود للممارسة المظهرية للدين ولكن حتى هذه الممارسة كانت حركات بلا معنى » .

صديقي . إنك إنسان تبحث عن ارتباط مع جميع إخوتك في الإنسانية ، دون تمييز لعنصر أو لقمة ، ونحبا معهم آلامهم وآمالهم . وتضع يدك في يدهم ، ثم وجدت نفسك بعد أن خضت معركة الحياة مدافعا عن وجودك الذاتي ، في عزلة عنهم . لقد انشغلت ببناء ذاتك – أسرتك وما تحتاج إليه من فائض من العائد المادي لعملك ، يوفر لهم رفاهية التعلم ، وحدا أدنى من الطمأنينة على مستقبلهم ، عن ارتباطك القديم بزملائك الذين انشغلوا هم أيضا بذواتهم ، وانشغلت عن آمالك للأسرة الكبيرة بمن فيها من فقراء ومظلومين . وفي ذات الوقت لم تستكمل انتمائك لطرف الآباء المترفين . لقد صرت أنت وزملاءك في موقع الأبوة والمسئولية عن مصير الأسرة ، ولم يعد ينفع أن تمارسوا دور الابن بالرفض المطلق بلا عمل ولا بالرفض المشكل بأعراف فضلات الترف ولا بالرفض الحالم . إنك ترفض « الترف » ولكنك أيضا ترفض « الطرف » . وبين أن تتحمل مسئوليتك القيادية كأب لحفظ كيان الأسرة ، وما يترتب على ذلك من التربح على القمة بما فيها من مناصب ، وبين أن تعود لموقع الأبناء . وهو مستحيل ، لأنك تتعاطف بنفس القدر مع كل طرف ، فأنت ضائع ، والصراع الذي عشته خارجك في صورة الانتماءات الاجتماعية انتقلت . أصبح صراعا بداخلك الآن . والمشكل الذي يترتب على ذلك الصراع يمنعك من الرؤية السليمة ، والتفرغ لخارجك . لقد حققت ما يوسعك أن تحققه من نجاح ولم يعد هذا التحدي يحفزك إلى العمل . وأصبحت الآن تواجه سؤالا عن حقيقة دورك في الحياة والمجتمع .

إنك تبحث مرة أخرى عن الانتماء والتآخي مع الآخرين . ومرضك النفسي ما هو إلا هذه العزلة المؤقتة التي تحياها ، وهي بمثابة الوقفة التي تلفظها مع نفسك ، لتعيد حسابك ، وتعيد تشكيل دورك في الحياة وتعيد البحث عن طريق جديد ، عن دين ولكنه هذه المرة ليس دين ترف ولا دين طرف في مواجهة طرف آخر ، إنك تبحث عن دين يجمعك مع سائر إخوتك في الإنسانية ، دين ينبع من داخلك ، لا يفرض عليك من الخارج ، ويقربك من ربك من خلال قربك لجميع خلقه ، بدلا من أن يقربك من فئة ضد فئة ، ويبعث في نفسك الطمأنينة والغبطة بدلا من الخوف والكراهية .

« هل لك أن ترشدني لمثل هذا الدين ؟ » .

– لست بكاهن ولا حامل رسالة ، ولكني طبيب . وأولاني الأول هو لك كمريض يعاني ويتألم . وأبحث عن تخفيف لمعاناته . وعلى أية حال .. أخبرني عن مشاعرك في هذه اللحظة ؟

« إني أشعر بدرجة من الراحة أن تحدثت من بلورة مشكلتي ، واضعا قدمي على بداية الطريق . وإني وجدت من يستمع إلي ، ويشاركني في الألم ، ويشير إلى مصادرها » .

– آلام العزلة تخففها المشاركة . وعلى كل فإن مشكلتك ليست خاصة بك ولكنها تعكس مشاكل المجتمع ، بل الإنسانية ، وسوف أقترح عليك كخطوة أولى أن تلتقي بآخرين يعانون مثلك من العزلة ، لتشتركوا في طرح المشكلة ، والبحث معا عن العلاج في شكل جماعي .

« ولكن هذا لن يبقيني عزلتي تماما لأنه سيحولها من عزلة أعاني منها وحدي إلى عزلة أشترك فيها مع مجموعة مثلي ، لقد قضيت الساعات مع الزملاء نشكو ظلم الواقع ، وآلامه حول أطباق الكافيار ، وكئوس الفودكا ، وبعد أن تكون المجموعة فهناك خطورة أن تنغلق على نفسها وتتطرف هي الأخرى ، كذلك تصبح بمثابة الفرد الواحد كل أعضائها نمط متكرر من الآخر . وهنا لابد من دم جديد – قد يكون مهديا منتظرا ، أو انفتاحا على مجموعة أخرى تتفاعل معها وتثريها ، وربما تتحداها وتتعارك معها . وبعد ذلك تتسع حدود المجموعة وتعود الكرة ، حيا تنغلق مرة أخرى ، وتتحول إلى نمط متكرر لفرد واحد ، وتحتاج مرة أخرى إلى تغيير وتفاعل مع الخارج » .

« معنى ذلك أن ألمي لن ينتهي تماما ، ولكن فقط سوف تتسع الدائرة التي يتخفف فيها بالمشاركة والتفاعل » .

– الصحة النفسية لا تساوي انعدام الألم الذي هو الوجه الآخر لانعدام اللذة ، وكلاهما مظهر للشلل في الإحساس الذي هو الموت بعينه . ولكنه الصحة أن نحيا ونموت ، ونفرح ونحزن ، تتلذذ وتتألم ، تنفتح وتنغلق ، تتحول وتتوقف أنت تتألم الآن وتتحول وتفقد الإحساس .. وهذا حلقك وهو جزء من الدورة الطبيعية . فلا تقاوم ، بل اترك نفسك تمر بالدائرة ، ولكن حد معك الرؤية إن هناك مرحلة قادمة تتفوها ، فتتعد لها ، ولتبدأ خطوة على طريقها . واعتبر أن ذلك هو الدواء المر الذي عليك أن تأخذه لتشفى ، إني أرى الآن الدوائر المتزايدة الاتساع ، والتي كنت انتمي إليها ، وكيف كان احساسي عنها أن هذا نهاية المرارة وأن ما وصلت إليه هو الحق ، وما حققته هو الخلود . وعند كل أزمة اكتشف اتساعا جديدا للدائرة ، ونهاية الدائرة الدائرة السابقة ، كأنها الموت الذي كنت أخشاه . والآن أستطيع أن أقبل انتمائي لدائرة محدودة في ذات الوقت الذي كنت أخشاه . الآن أستطيع في ذات الوقت الذي أرى نهايتها وضرورة الانتقال إلى الدوائر الأوسع . من حقي أن أنتمي إلى الترف أو الطرف الآخر ، ولكن من المهم أن أتجاوز الأطراف ، وأوسع دائرة انتمائي ، لكي أبقى حيا، أنمو وأتطور .

إذا كنت مسئولا أتميز عن باقي المسلمين فهذا حق في مرحلة ، على ولكن أن أعيد انتمائي للمسلمين جميعا وإلا انعزلت ، وإن كنت مواطنا مصريا فهذا حق أيضا ولكن على أن أتذكر أيضا انتمائي العربي والأفريقي والآسيوي . وإن كنت ضمن أقلية متميزة فعلي أن أتذكر كذلك انتمائي للأغلبية ولا أنعزل عنها ، إني أكاد أعاف على إسرائيل بعد أن كنت أعاف منها .

فيا مصر تربي نفسها بفتح أبوابها لجميع أطرافها – نصر إسرائيل على أن تميز بين حق أبنائها اليهود في وطن قومي . وبينما تنكر نفس الحق للفلسطينيين .

« هل أنت مستعد للتفاعل مع مجموعة تشمل إسرائيليين وتواجههم بذلك ؟ » .

« إنك تختبر إمكانيتي على الخروج من عزلتي . ولكني مستعد للتفاعل مع الشيطان ، وأن أذهب للجحيم ذاته للقائه ، مستعد أن أسمع أني أيضا عنصري وفاشستي ومتعصب دينيا ومنكر لحق الأطراف الأخرى فيما أنعم به . مستعد أن أواجه بكل عيوبي . فعل أسوأ الفروض هي معركة أنقاض بدلا من معركة رصاص ودماء وعلى أحسن الفروض سوف أسعى لاصلاح عيوبي وأكتشف المزيد منها . أفتح النوافذ والأبواب ، لم يعد لدي شيء أخفيه . كفاني شكوى وأنينا ، واعرجي من العبادة ومن الرقص ، ودعني أتكلم وأفعل ، وأصرخ وأبكي وأضحك وأفعل ! هناك .. مع الناس .. جميعا ! » .

أتمنى لك التوفيق لأنك لو نجحت فسوف تفتح لي ولغيري دوائر أخرى لخرجنا من عزلتنا .

ملحوظة : حد أعمابك . لقد دفعها المجتمع علاوة على أنه من الآن سوف يتولى العلاج . أو ربما يلقاه منك ، وفي المقابل سوف أقبل عليه مجاناً نسيتها هنا فيما يبدو ، وعمدا كأنك تعاني استغناءك عن إيذاء نفسك . لعل صندوق القمامة أحق بها من أي إنسان .